القرآن.. عطاء حضاري متجدد

الأستاذ أمين نعمان الصلاحي

بحث نشر في كتاب

"رسالة القرآن"

بمشاركة نخبة من الباحثين والكتاب

وتنسيق إدارة البحوث والدراسات الإسلامية بوزارة الأوقاف
والشؤون الإسلامية بدولة قطر

الطبعة الأولى ربيع الأول 1431هـ - شباط (فبراير) 2010م

أعيد نشره إلكترونيا رمضان 1439 هـ / 2018م

القرآن.. عطاء حضاري متجدد

الأستاذ أمين نعمان الصلاحي(*)

إن القرآن لا يدعو إلى صراع الحضارات، بل يدعو إلى التسابق الحضاري في تقديم ما هو أنفع وأصلح للإنسانية. وهذا هو الفرق بين خطاب القرآن الذي يوظف الاختلاف والتنوع توظيفاً إيجابياً نافعاً مثمراً، وخطاب أولئك الذين يريدون أن يجعلوا من التنوع الحضاري مدعاةً وسبباً للصراعات والحروب.

الحمد لله الذي له ما في السماوات وما في الأرض، وله الحمد في الآخرة وهو الحكيم الخبير، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله البشير النذير، وعلى آله وصحابته أجمعين.. وبعد:

فمهما مرت الأيام وتعاقبت الأجيال يبقى القرآن محتفظاً بنضارته

(*) باحث أكاديمي.. مستشار إدارة التربية والتعليم (اليمن).

وطراوته وحيويته كما أنزل، ويبقى عطاؤه ثرياً ومتجدداً على الدوام، وتلك هي إحدى صفاته الإعجازية التي عبر عنها بعض الصحابة بقولهم: «**وَلا يَخْلَقُ عَلَى كَثْرَةِ الرَّدِّ**»[1].

- خلود الفاعلية والتأثير:

فالقرآن لا يخلق ولا يبلى أبداً، بل هو دائم التجدد في عطائه، وهذا التجدد في العطاء هو سر خلود النص القرآني؛ ذلك أن خلود النص القرآني ليس خلوداً تفرضه القداسة الدينية فحسب، ولكنه خلود يكتسب سره وضرورة وجوده من حاجة البشرية إليه؛ ومن هداياته المتجددة على الدوام.

إن القداسة الدينية قد توفر نوعاً من استمرار الوجود للنص الديني المقدس، وقد تمنحه نوعاً من الحضور في حياة الناس، كما هو الشأن مع جميع الكتب الدينية المقدسة عند أصحابها، ولكن تبقى ميزة القرآن أن خلوده وحضوره في حياة البشرية ليس لكونه مقدساً فقط، بل لأن له قيمة حقيقية، وتلك القيمة هي عطاءاته المتجددة على الدوام.

- لماذا لم يفسر النبي ﷺ القرآن؟

وإذا كان خلود القرآن قد ارتبط بعطاءاته المتجددة أمكننا أن نفهم الإجابة عن السؤال القائل: لماذا لم يفسر النبي ﷺ القرآن؟!

ذلك أن النبي ﷺ لو فسر القرآن فإنه كان سيأخذ منه عطاءً

---

(1) جزء من حديث رواه الترمذي في السنن: ح 2915، والدارمي في سننه: ح 3331،3332، والحديث روي مرفوعاً، وموقوفاً على علي وابن مسعود، رضي الله عنهما، والأشبه فيه أنه موقوف على علي، رضي الله عنه، وأما رفعه فلا يصح. انظر مشكاة المصابيح بتحقيق الألباني، ح 2138.

يتناسب مع مدارك المخاطبين في عصره، وكان سيأتي بعد ذلك من يقول لنا: لا يجوز أن نفسر القرآن بغير ما فسره النبي ﷺ! وكان هذا النوع من الفهم سيشكل عائقاً يحول بين الأجيال القادمة وبين عطاءات القرآن المتجددة، فالقرآن يعطي لكل جيل عطاءً يتناسب مع احتياجاته ومداركه، ومع ما وصلت إليه علومه ومعارفه، ومن أجل ذلك نعتقد - والله أعلم- أن النبي ﷺ قد أحجم عن تفسير القرآن، وإن كان هذا لا ينفي أن النبي ﷺ قد فسر بعض آيات القرآن القليلة بهدف توضيح المراد منها لا سيما عندما يُساء فهم تلك الآيات من قبل بعض المسلمين في عصره.. والسؤال المهم هنا: كيف نأخذ نصيبنا ونصيب عصرنا من عطاء القرآن الكريم؟

إن هذا السؤال يستبطن تقرير حقيقة مهمة، وهي أن في القرآن عطاءً غير محدود.. والقرآن كريم في عطائه كما يدل على ذلك أشهر أسمائه على الإطلاق: (القرآن الكريم).. فما مدى قدرتنا إذن على مد يد البصيرة لنغترف من عطاء القرآن؟

- الاهتمام المنقوص:

الحقيقة أن عنايتنا بحفظ النص القرآني، وإتقان تلاوته، وضبط ألفاظه، وتحقيق مخارج حروفه، قد فاقت كثيراً عنايتنا بفهمه وتدبره وتعقله، وبمعنى آخر: إن تعاملنا مع القرآن على أنه (كتاب محفوظ) قد فاق كثيراً تعاملنا معه على أنه (كتاب معقول)، مع أن القرآن كثيراً ما يؤكد أنه كتاب معقول، أنزل لأولي الألباب، ولقوم يعقلون، ويتفكرون، ويتدبرون!

وهذا الخلل في التعامل مع القرآن طالما شكا منه رواد الإصلاح والتجديد في عالمنا الإسلامي، ومنهم الإمام ابن تيمية، رحمه الله، حيث يقول: «وأما في باب فهم القرآن فهو - أي المؤمن الذي عرف قدر القرآن-

دائم التفكر في معانيه والتدبر لألفاظه، واستغنائه بمعاني القرآن وحكمه عن غيره من كلام الناس، وإذا سمع شيئاً من كلام الناس وعلومهم عرضه على القرآن، فإن شهد له بالتزكية قبله وإلا رده، وإن لم يشهد له بقبول ولا رد وقفه، وهمته عاكفة على مراد ربه من كلامه.

ولا يجعل همته فيما حُجب به أكثر الناس من العلوم عن حقائق القرآن إما بالوسوسة في مخارج حروفه وترقيقها وتفخيمها وإمالتها والنطق بالمد الطويل والقصير والمتوسط وغير ذلك.. فإن هذا حائل للقلوب، قاطع لها عن فهم مراد الرب من كلامه، وكذلك شغل النطق بـ (أأنذرتهم) وضم الميم من عليهم، ووصلها بالواو وكسر الهاء أو ضمها ونحو ذلك، وكذلك مراعاة النغم وتحسين الصوت، وكذلك تتبع وجوه الإعراب واستخراج التأويلات المستكرهة التي هي بالألغاز والأحاجي أشبه منها بالبيان، وكذلك صرف الذهن إلى حكاية أقوال الناس ونتائج أفكارهم، وكذلك تأويل القرآن على قول من قلد دينه أو مذهبه فهو يتعسف بكل طريق حتى يجعل القرآن تبعاً لمذهبه وتقويةً لقول إمامه، فكل هؤلاء محجوبون بما لديهم عن فهم مراد الله من كلامه في كثير من ذلك أو أكثره..»[1].

- التقديس الخاطئ والفهم المغلوط:

ويمكننا أن نضيف إلى تلك الإشكاليات التي ذكرها الإمام ابن تيمية إشكالية أخرى عانينا ولا نزال نعاني منها، وهي أيضاً مما يحول بين

(1) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، 16/50-51.

كثيرين وبين تفهم القرآن الكريم، والاستفادة من عطاءاته المتجددة، وأعني بها ذلك التقديس الخاطئ للقرآن؛ أي تقديسه عن الفهم!

فلقد أصبح في اللاشعور عند قطاعات واسعة من المسلمين خوف من الاقتراب من دائرة التفكر والتدبر، وأصبحوا يظنون أنها دائرة خطرة، ويستدلون لذلك - خطأً- بحديثين ضعيفين هما: «من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ»، و«من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار»[1]!

ولذلك هم يفضلون البقاء في الدائرة الآمنة؛ أي دائرة الحفظ والتلاوة المجردة الخالية من التفكر والتدبر!

وأصبحت قراءة القرآن عندهم هدفاً بحد ذاتها، مع أنها لا تعدو كونها وسيلة للفهم، وكل تشجيعٍ وحثٍ وحضٍ على قراءة القرآن فمقصود الشارع الحكيم منها تحقيق الهدف من القراءة، وهو الهدف الذي ذكره القرآن في غير موضع، وحث عليه مراراً وتكراراً في الآيات البينات، كما في قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ (ص:29)؛ وقوله سبحانه: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (النحل:44)؛ وقوله جل ذكره: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ

(1) قال الألباني عن الحديثين في رفع الأستار، ص111: رواهما الترمذي وغيره بسندين ضعيفين. انظر: رفع الأستار لإبطال أدلة القائلين بفناء النار لمحمد بن إسماعيل الأمير، بتحقيق: الألباني، ط الأولى (بيروت: المكتب الإسلامي، 1405هـ)؛ وانظر السلسلة الضعيفة للألباني، ح 1783. والحديثان رواهما البيهقي في شعب الإيمان، ح 2275 و 2276 و 2277 بلفظ: «من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار» و«من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ»، وقال: «وهذا إن صح فإنما أراد -والله أعلم- الرأي الذي يغلب على القلب من غير دليل قام عليه، فمثل هذا الرأي لا يجوز الحكم به في النوازل، فكذلك لا يجوز تفسير القرآن به، وأما الرأي الذي يسنده برهان فالحكم به في النوازل جائز، وكذلك تفسير القرآن به جائز».

عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾ (النساء:82)؛ وقوله عز شأنه: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾ (محمد:24).

- الثقة المفقودة:

إن هذه الثقة التي يتحدث بها القرآن عن نفسه، وهذه الدعوات القرآنية المتكررة لإعمال العقل والتفكر والتدبر يجب أن تنعكس على نفوسنا فنتعامل مع هداية القرآن بثقة، ودونما خوف أو وجل؛ لأن القرآن كتاب هداية، ويجب أن نتعامل معه على هذا الأساس، وأن نستشعر في دواخلنا أنه لن يضل أبداً من جاء القرآن طالباً الهداية، بل إن الذي يقرأ القرآن ثم يضل فذلك دليل على فساد طويته، وسوء نيته؛ بحيث يمكننا القول: إن من ضل بالقرآن فهو فاسق، أخذاً من قوله تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ (البقرة:26).

إن القرآن هو مأدبة الله للعالمين، كما في جاء في الحديث: «**إن كل آدب يحب أن تؤتى مأدبته وإن مأدبة الله هي القرآن**»(1).

فالله تعالى يحب أن تتجه القلوب والعقول نحو مأدبة القرآن لتأخذ منها غذاءها النافع الملائم لها، ومأدبة القرآن هي مأدبة عالمية مفتوحة لكل بني الإنسان، وهي لذلك من أعظم مظاهر الرحمة الإلهية بالإنسانية، وهذا مغزى قوله سبحانه: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝ عَلَّمَهُ

(1) روي مرفوعاً وموقوفاً على ابن مسعود، رضي الله عنه. انظر ابن تيمية، اقتضاء الصراط المستقيم بتحقيق محمد حامد الفقي (القاهرة: مطبعة السنة المحمدية) ص217؛ وابن تيمية، مجموع الفتاوى، 41/4؛ وانظر سنن الدارمي، 3307؛ ومستدرك الحاكم، 2040.

ٱلْبَيَانَ﴾ (الرحمن:1- 4).

- من جلد الذات إلى فتح آفاق التدبر:

ومما ينبغي التنبيه عليه هنا أن حديثنا عن هجر تدبر القرآن يجب أن يتجاوز مرحلة الإدانة وجلد الذات، إلى فتح آفاق التفكر والتدبر أمام الناس، ووضع الحلول والمعالجات المناسبة لمشكلة عدم التدبر، فلقد انتقد كثير من الفقهاء على طوائف من النساك والمتعبدة والمتصوفة انشغالهم عن القرآن بمجالس الذكر والسماع(1)، ولقد أعجبني تحليل ابن تيمية، رحمه الله، في هذه المسألة؛ لأنه ابتعد عن لغة الإدانة، وقدم رؤية تحليلية شخصت الداء، وقدمت الدواء، ففي سياق تقريره أن المفضول يكون أفضل في حق من لا يصلح له الأفضل يقول: «إن كثيراً من المتعبدة قد ينتفع بالذكر في الابتداء ما لا ينتفع بقراءة القرآن؛ إذ الذكر يعطيه إيماناً، والقرآن يعطيه العلم، وقد لا يفهمه، ويكون إلى الإيمان أحوج منه؛ لكونه في الابتداء، والقرآن مع الفهم لأهل الإيمان أفضل بالاتفاق...»(2).

ويتحدث عن (الذكر) و(الفكر)، ويبين الفرق بينهما من جهة أن الذكر متعلق بالله سبحانه وتعالى، والفكر متعلق بالمخلوقات، ويعلل كون الذكر متعلقاً بالله بكونه سبحانه الحق المعلوم، فحقه أن يذكر، ثم يقول: «ولهذا كان كثير من أرباب العبادة والتصوف يأمرون بملازمة الذكر، ويجعلون ذلك هو باب الوصول إلى الحق، وهذا حسن إذا ضموا

---

(1) انظر على سبيل المثال: ابن الجوزي، تلبيس إبليس (مصر: المكتبة التوفيقية) ص319-321.

(2) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، 121/19.

إليه تدبر القرآن والسنة...»[1].

ويتحدث ابن تيمية عن عطاء القرآن، الذي يجمع بين العلم والإيمان، فالقرآن يقيم الإيمان على الحجة والبرهان، ومن أراد العلم النافع والإيمان الصحيح فعليه بالقرآن، وعن هذا العطاء يقول، رحمه الله: «والقرآن يعطي العلم المفصل فيزيد الإيمان كما قال جندب بن عبدالله البجلي وغيره من الصحابة: تعلمنا الإيمان ثم تعلمنا القرآن فازددنا إيماناً، ولهذا كان أول ما أنزل الله على نبيه: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ (العلق:1)»[2].

وهكذا نرى ابن تيمية يتجه نحو تفسير الظاهرة، ويتلمس أسبابها، ومن ثم يقدم رؤيته الهادفة للترشيد والتصحيح والتصويب، ولا يكتفي بالإدانة فقط كما يفعل بعضهم.

والذي يهمنا أن خطاب الإدانة تجاه قضية هجر تدبر القرآن لا يكفي لوحده، بل لابد أن يتوازى معه خطاب آخر يقرب معاني القرآن للأذهان، ويجتهد في الكشف عن مقاصد وكليات الخطاب القرآني، ويفتح مغاليق العقول والقلوب لتفهم رسالة القرآن، بحيث تصبح في متناول جميع الأفهام.

- كتاب يستوعب الحياة لا كتاب شعائر وطقوس:

إن الذي يتأمل في الخطاب القرآني سيجد أنه يوسع المدارك، ويفتح الآفاق الواسعة أمام العقل الإنساني، فالقرآن ليس كتاباً دينياً بالمعنى الديني الضيق (الإيمان الخاص + الشعائر والطقوس)، ولكنه كتاب جاء

(1) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، 40/4.

(2) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، 38/4.

ليقدم الهداية بمعناها الشامل للبشرية، وعن هذه الوظيفة نقرأ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ (المائدة:15- 16).

- الهداية الحضارية.. عصمة من الانحراف وحماية من السقوط:

ومن هداية القرآن للإنسانية تلك المضامين الحضارية التي تضمنها خطابه، والتي تعتبر ضرورية لحماية المجتمع الإنساني من التراجع والهلاك والانهيار والسقوط الحضاري، فالقرآن يعصم من الضلال، ويحمي من الهلاك، وفي هذا يقول النبي ﷺ: «**إنّ هذا القرآن سبب طرفه بيد الله، وطرفه بأيديكم، فتمسكوا به، فإنكم لن تضلوا ولن تهلكوا بعده أبداً**»(1).

- القرآن يندد بذوي العمى الحضاري:

إن القرآن يعيب على الذين لا يفقهون قوانين الحياة، ويصفهم بعمى القلوب، كما في قوله تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئۡرٖ مُّعَطَّلَةٖ وَقَصۡرٖ مَّشِيدٍ ٤٥ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ (الحج:45- 46).

---

(1) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (165/12) بإسناد صحيح على شرط مسلم، وهو في سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني برقم (713).

وعمى القلوب هنا ليس سوى انحطاط الأفهام عن أن ترتقي إلى مستوى المراجعة والتقويم لمسار الحياة، وبعبارة أخرى: غياب الوعي الحضاري اللازم للاستفادة من تجارب الآخرين، وأخذ العظة والعبرة مما جرى عليهم، وفقاً لسنة الله في المجتمعات البشرية.

- العلم.. كيف نستفيد منه في البناء الحضاري؟

ولما كان العلم هو الأساس الذي تنبني عليه الحضارات الراشدة، فقد اعتنى به القرآن أيما عناية، والعلم في مفهوم القرآن ليس هو العلم الديني فحسب، وإنما معرفة الأشياء، وإدراك حقائق الوجود، والمرة الوحيدة التي ذكر فيها اسم «العلماء» في القرآن كان في سياق الحديث عن الآيات الكونية، وعن تنوع الخلق الدال على القدرة الإلهية، وهم العلماء المذكورون والموصوفون بالخشية في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾(فاطر:28)، وهم علماء الكونيات، ويمكننا أن ندرك ذلك بقليل من التأمل في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ (فاطر:27- 28).

ولما كان الغرور بالعلم من أخطر الآفات التي تعوق العقل الإنساني وتحبط ملكاته، فالقرآن يكبح جماح المغرورين بالعلم بتقريره لنسبية المعرفة الإنسانية كما يفهم من قوله تعالى: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾

(يوسف:76)، وقوله: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (الإسراء:85)، وقوله: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (طه:114).

والقرآن يحذر من الاغترار بالعلم، ومن انفصال العلم عن الأخلاق، ويجعل ذلك من أسباب هلاك الأمم واندثار المجتمعات: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ (غافر:83).

- الفرق بين العقلية العلمية والعقلية المتخلفة:

وفي ذات السياق يلفت القرآن أنظارنا إلى أن المجتمعات التي تفقد وعيها وبصيرتها الحضارية، لا تهتدي إلى الأسباب الحقيقية لنكباتها ومآسيها، ولكنها تخطئ في التحليل والاستنتاج، وتعلق إخفاقاتها على مشجب الآخرين، بل وتغرق في الجهل والتخلف حينما تنسب ما حل بها إلى الأسباب الوهمية! وفي هذا المعنى نقرأ في القرآن قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف:131).

- تحرير التفكير من العوائد:

والقرآن يلفت أنظارنا إلى خطورة منطق الإلف والعادة حينما يسيطر على التفكير؛ لأنه حينئذٍ يُغيّب وعينا الحضاري، ويحول بيننا وبين اليقظة والتنبه والمراجعة؛ إذ تصبح تقلبات الحياة في نظرنا عادةً جاريةً، وأمراً مألوفاً، ومن ثم لا نأخذ منها عبرةً لتصحيح المسار، وتلافي الأخطاء: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ

مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلۡنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلۡحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدۡ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةً وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ (الأعراف:94- 95).

- الترف داء الحضارات وهلاك المجتمعات:

ولما كان الترف هو داء الحضارات قديماً وحديثاً، فإن القرآن يحذر من خطورة الإغراق في متاع الحس والانغماس في الترف؛ إذ أنه يعطل مدارك الإنسان، ويطمس بصيرته، ويجعله متسرعاً في أحكامه، سطحياً في نظرته، سخيفاً في استنتاجاته، وهذا ما يمكن فهمه بقليل من التأمل في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ (الزخرف:23- 24)، وقوله سبحانه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ (سبأ:34- 35).

والمترفون في كل أمة هم الذين يقودون ركب الانحطاط والسقوط الحضاري، وهم الذين يقودون مجتمعاتهم نحو الهلاك المحقق: ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا﴾ (الإسراء:16)[1].

- تنافسٌ في الخيرات لا صراع بين الحضارات:

(1) ومعنى قوله: ﴿أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا﴾ أي أمرناهم بالطاعة فعصوا الأمر وفسقوا. انظر: فتح القدير للشوكاني، وتفسير الجلالين.

والقرآن عندما يتحدث عن الاختلاف بين الأمم والشعوب فإنه يتحدث عنه بلغة حضارية راقية جداً، فالقرآن يحث على جعل ذلك الاختلاف سبباً لإثراء الحياة الإنسانية بحيث تسعى كل أمة، ويسعى كل أصحاب ملة لكي يقدموا أفضل ما لديهم، ولكي يتسابقوا في الخيرات، تاركين أمر الخلاف الديني لله، ليقضي فيه بالحق يوم القيامة: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (المائدة:48).

وبقليل من التأمل في هذه الآية الآمرة باستباق الخيرات، سنرى أن الأمر فيها أتى عقب الحديث عن أهل الكتاب وموقفهم السلبي من رسالة الإسلام، وأن الأمر باستباق الخيرات موجه لهم وللمسلمين، وأما الخلاف الديني فأمره إلى الله وهو الذي سيفصل فيه يوم ترجع جميع الخلائق إليه.

إن القرآن لا يدعو إلى صراع الحضارات، بل هو يدعو إلى التسابق الحضاري في تقديم ما هو أنفع وأصلح للإنسانية. وهذا هو الفرق بين خطاب القرآن الذي يوظف الاختلاف والتنوع توظيفاً إيجابياً نافعاً مثمراً، وخطاب أولئك الذين يريدون أن يجعلوا من التنوع الحضاري مدعاةً وسبباً للصراعات والحروب.

- اختلاف يثري الحياة الإنسانية:

وتتجلى الرؤية الحضارية للقرآن في نظرته إلى اختلاف الناس في

قومياتهم ولغاتهم وألوانهم، فالقرآن يقرر أن ذلك الاختلاف هو سنة كونية يجب الاعتراف بها، والتعامل معها بروح إنسانية متجردة من الهوى والعصبية، وفي هذا المعنى نقرأ قول المولى سبحانه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ (الروم:22)، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات:13).

ومن أجل استقرار وإثراء الحياة الإنسانية يعلمنا القرآن أن التفاوت في القدرات والإمكانات هو سنة كونية، ومظهر لحكمة الله التي قد تقصر عنها بعض الأفهام، وبالتالي فإن على كل فرد في المجتمع أن يقنع بما له من قدرات وإمكانات تخصه، وأن يحسن توظيفها دون أن يتطلع بعين الحسد إلى ما عند الآخرين، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ (النساء:32)، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (الأنعام:165).

ويبين القرآن الحكمة من تفاوت أبناء المجتمع في قدراتهم وإمكاناتهم، وتلك الحكمة هي أن يسخِّر الناس قدراتهم وإمكاناتهم المتنوعة في عمارة الأرض، وترقية الحياة، وتبادل المنافع والخدمات: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (الزخرف:32).

- **علاقات تحكمها المبادئ لا المصالح:**

وعلى مستوى العلاقات بين الأمم والشعوب نجد القرآن يقرر أن العهود والمواثيق يجب احترامها ولا يجوز جعل المصالح ذريعة لنقضها والتملص منها: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (النحل:92).

- **عطاء حضاري يكرم الإنسانية ويرتقي بها:**

وهذه المضامين الحضارية في الخطاب القرآني تبين بجلاء أن القرآن يريد للمجتمع الإنساني أن يرتقي إلى مستوى التكريم الإلهي للإنسان، فالإنسان في المنظور القرآني هو مخلوق مكرم، خَلْقاً وإعداداً وإمداداً: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (الإسراء:70).

- **إنسانية متساوية لا أجناس متمايزة:**

وهذا التكريم الإلهي لبني الإنسان يتنافى مع تلك الدعاوى التي تزعم أن الشر صفة أصيلة في الإنسان؛ أي أن الإنسان شرير بطبعه، أو تلك التي تحاول أن تعمم صفة الشر على بعض المجتمعات الإنسانية بسبب الخلاف الديني أو القومي أو السياسي، وقد كان هذا النوع من التعميمات الجائرة سبباً لمآسٍ كثيرة حلت بالإنسانية، ومبرراً للظلم والعدوان والهمجية، وأما القرآن فهو يقرر أن المجتمعات الإنسانية فيها الخير وفيها الشر، وليس

هنالك مجتمع إنساني متمحض للخير أو للشر، وفي تقرير هذه الرؤية الحضارية يقول القرآن: ﴿۞ وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مَنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِدِينَارٖ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ إِلَّا مَا دُمۡتَ عَلَيۡهِ قَآئِمٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾(آل عمران:75).

فعلى الرغم من موقف أهل الكتاب السلبي من الإسلام، ومن نبي الإسلام ﷺ، نجد القرآن لا يعمهم بحكم واحد، بل يقرر أن منهم أناساً هم أهل أمانة يؤدون الأمانة إلى أهلها وإن كانت عظيمة، وأن منهم آخرين هم أهل خيانة يخونون في الشيء الحقير فضلاً عن الشيء الكبير.

قال الإمام الشوكاني، رحمه الله: «ومعنى الآية: أن أهل الكتاب فيهم الأمين الذي يؤدي أمانته وإن كانت كبيرة، وفيهم الخائن الذي لا يؤدي أمانته وإن كانت حقيرة، ومن كان أميناً في الكثير فهو في القليل أمينٌ بالأولى»(1).

ويتحدث القرآن عن اليهود الذين قضى الله عليهم بالشتات فيقول: ﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُمَمٗاۖ مِّنۡهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنۡهُمۡ دُونَ ذَٰلِكَۖ وَبَلَوۡنَٰهُم بِٱلۡحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ (الأعراف:168).

ثم يلتفت بالخطاب إلى اليهود المعاصرين لرسول الله ﷺ فيقول: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ

(1) الإمام الشوكاني، فتح القدير، ط الثانية (دمشق: دار ابن كثير، 1998م) 405/1.

﴿وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ (الأعراف:169).

والقرآن يخبرنا أن أي مجتمع ومهما كان صلاحه وتقواه، فإنه لن يصل إلى درجة (المجتمع الملائكي)، ولكن سيكون فيه من هو سابق بالخيرات، ومن هو مقتصد، ومن هو ظالم لنفسه، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ﴾ (فاطر:32).

فالظالم لنفسه هو: المقصر التارك لبعض الواجبات، المرتكب لبعض المحرمات.

والمقتصد هو: المقتصر على فعل الواجبات، وترك المحرمات، مع تقصير يقع منه في عمل المندوبات، وارتكاب منه لبعض المكروهات.

والسابق بالخيرات هو: الذي يقوم بالواجبات، ويترك المحرمات، ويزيد على ذلك بفعل المندوبات، وترك المكروهات.

وهؤلاء الأصناف الثلاثة - على ما بينهم من التفاوت- يجعلهم القرآن من الأمة التي اصطفاها الله من عباده، وأورثها الكتاب، وهو ما يعني عدم وجود مجتمع متمحض للخير بكل أفراده ونشاطاته وحركته في الحياة، بل مهما كان المجتمع خيِّراً وصالحاً فلا بد أن يوجد فيه الظالم لنفسه، والمقتصد، والسابق بالخيرات.

وينبني على هذه الرؤية الحضارية الراشدة سقوط كل دعاوى الاستعلاء والتميز السلالي والعنصري، فليس هنالك (شعب مختار) دون بقية الشعوب، وليس هنالك (جنس متفوق) على بقية الأجناس، وإنما مجتمعات إنسانية

لديها القابلية للخير والشر، وللعدل والظلم، وللصلاح والفساد، ويتفاوت أفرادها في صعود سلم الكمال الإنساني بحسب استعدادهم وعزماتهم وظروفهم وما يتهيأ لهم من أسباب.

وانطلاقاً من هذه الرؤية الحضارية - أيضاً- رأينا المنهج القرآني يتدرج ويترفق بالنفس الإنسانية، ولا يجنح نحو المثالية الخيالية التي تتصور أن في وسعها أن تصب الناس كلهم في قالب واحد من المشاعر والسلوك، كما هو الحال لدى بعض الفلسفات والمذاهب الاجتماعية والفكرية، وقد نتج عن ذلك ما هو معروف من المآسي، ويكفي هنا التذكير بتجربة الأحزاب الشيوعية في العالم.

- عطاء حضاري يتجدد:

وبعد:

فتلك بعض عطاءات القرآن الحضارية، تلمسناها في قراءة أولية، وقد حرصنا من خلال عرضنا لها على ربط القارئ بالنص القرآني تأملاً وتفكراً وتدبراً واستنباطاً واستنتاجاً، حتى يتعود على تذوق النص القرآني، والتعامل المباشر معه.

ويبقى استكشاف عطاء القرآن الحضاري مما تمس الحاجة إليه في أيامنا هذه؛ إذ لا أحد يستطيع أن ينكر أن الحضارة المعاصرة قد بلغت شأواً كبيراً في الجانب المادي والتقني، ولكنها مع ذلك بحاجة ماسة للترشيد والتزكية والتصويب لكي يتحقق لها الانضباط بالقيم المعيارية الراشدة، حتى يتحقق لها الأمان في نفسها، وحتى لا تتغول على الإنسان وعلى القيم

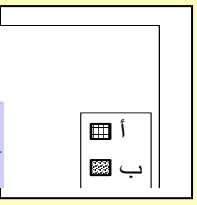

الأخلاقية النبيلة، والقرآن بقيمه ومبادئه الحضارية الراشدة يستطيع أن يمنح الحضارة المعاصرة ما تحتاج إليه من طمأنينة ورشد وأمان.

وإذا تأملنا في المبادئ والقيم الحضارية التي تضمنها الخطاب القرآني سنجد فيها دلالة واضحة على أن القرآن هو خطاب إلهي لرشد العقل الإنساني، وأنه كلما ترقى العقل الإنساني في مدارج الكمال كان أقدر على فهم الرسالة القرآنية، واستيعاب مضامينها الحضارية، وهو ما يعني بالضرورة بقاء عطاء القرآن الحضاري ثرياً ومتجدداً على الدوام.

هذا ويمكننا أن نلمح في عطاءات القرآن المتعددة والمتجددة مدى العناية الإلهية بالإنسان، وفي عطاء القرآن الحضاري مثال على تلك العناية؛ فما يحويه القرآن من مبادئ حضارية سامية، ومفاهيم راقية، وأحكام راشدة، يحتاجها الناس أشد الاحتياج، ويشعرون تجاهها بالطمأنينة الكاملة كونها تأتي منسجمة تماماً مع ما يقضي به العقل السليم، ومع ما ترشد إليه الفطرة السليمة، كل ذلك لا شك أنه يدل على اللطف الإلهي والعناية الربانية ببني الإنسان.

وختاماً:

فإن من تكريم الله للإنسانية أن جعل خلود القرآن منوطاً بالعقل الإنساني والفطرة الإنسانية، وبالتالي فإن خلود القرآن وعطاءه ووجوده الحي المؤثر باقٍ ما بقي عقل صحيح يتفهم، وفطرة سليمة تتقبل.